بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون

القرآن والقِتال

محمود محمد شلتوت

MABDA

السلسلة العربية - الكتاب ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

سورة الأنفال، ٨: ٤٥

كتب أخرى من نفس السلسلة

١. ورد القرآن اليومي ٢٠٠٨
٢. الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم: الأحاديث التي وردت في فضائل السور والآيات ٢٠٠٩
٣. كتاب الأربعين في رحمة الدين ٢٠٠٩
٤. بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٢٠٠٩
٥. الحقيقة والمعرفة ٢٠٠٩
٦. تعداد الضحايا ٢٠١٠
٧. القرآن الكريم والبيئة ٢٠١٠
٨. الخطاب الموجه إلى صاحب القداسة البابا بنديكتوس السادس عشر ٢٠١٠
٩. حِبّا ٢٠١١
١٠. العرف العاطر في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر ٢٠١١
١١. كتاب فضائل الذكر ٢٠١١
١٢. العقل والعقلانية في القرآن ٢٠١٢
١٣. مفهوم الإيمان في الإسلام ٢٠١٢
١٤. كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ٢٠١٢
١٥. الخطاب الموجه إلى رابطة العلماء الأردنيين ٢٠١٢
١٦. حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـ"الدولة اليهودية" ٢٠١٢
١٧. لماذا يجب أن نزور المسجد الأقصى المبارك؟ ٢٠١٢
١٨. القرآنُ والقِتَال ٢٠١٢

القرآن والقِتال

محمود محمد شلتوت

١٨

MABDA

السلسلة العربية - الكتاب ١٨

المحتويات

١. ملخص | ٧

٢. الطريقة المثلى في تفسير القرآن | ٩

٣. طبيعة الدعوة الإسلامية | ١٩

٤. آيات القتال | ٣٥

٥. علاقة آيات العفو بآيات القتال | ٥٣

٦. آيات تنظيم القتال | ٥٧

٧. التطبيق العملي لأحكام القرآن في القتال | ٧٩

٨. نبذة عن المؤلف | ٩١

ملخص

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للخلق أجمعين، وأنزل عليه القرآن تبيانًا لكل شيء فرسم للناس حدود العقيدة الصحيحة، ودوائر الأخلاق الفاضلة وأرشدهم إلى ما ينظمون به علاقة بعضهم ببعض على وجه يدفع الطغيان، ويحفظ الحقوق.

وبعد فهذا بحث عن القتال في نظر القرآن، ألقيته في محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية من سنين في سلسلة من المحاضرات، وأردت نشره على الناس مرة أخرى في رسالة مطبوعة ليتمكَّنوا من قراءته فينتفع به من يحتاج إليه، ويبدي رأيه فيه من يرى ذلك.

وقد ضمنت مقدمته بيان الطريقة المثلى في نظرنا لتفسير القرآن الكريم، وألمعت إلى السبب الذي حملني على اختيار هذا الموضوع من بين موضوعات القرآن.

أما البحث فقد تناول:

طبيعة الدعوة الإسلامية - القرآن ومشروعية القتال - القرآن وتنظيم القتال وأحكامه المبدئية والنهائية.

ثم ذيّلت فصول هذا البحث بخاتمة بينت فيها أن القتال العملي الذي قام به الرسول في غزواته. وقام به خليفتاه من بعده في حروبهما كان تطبيقًا صحيحًا لما قرَّره القرآن في تشريع القتال وتنظيمه وأحكامه لم يحد عنه قيد أنملة.

وهذا ما ستقرأ تفصيله في تلك الرسالة وأرجو أن يكون الله قد ألهمني فيما كتب الرشد والسداد.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

محمود شلتوت

شوال سنة ١٣٧٠هـ

يوليو سنة ١٩٥١م

الطريقة المثلى في تفسير القرآن

لتفسير القرآن الكريم طريقتان:

إحداهما: أن يسير المُفَسِّر بتفسيره مع آيات الذِّكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآني المعروف، فيفسِّر المفردات، ويربط بين الآيات، ويبين المعاني التي تدل عليها.

وهذه هي الطريقة التي عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسِّرُون. ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسِّرين: فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عني في تفسيره بالتطبيق على قواعدها، ومن غلبت عليه روح النحو والصرف، عني في تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها، ومن غلبت عليه الروح التاريخية، عني بالقصص والأخبار وربما أسرف فأدخل في التفسير كثيرًا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص، ومن غلبت عليه الروح الفلسفية حبب إليه البحث في الكائنات، وعني في تفسيره بهذا الجانب، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامي أو الفقهي تأثر تفسيره بما غلب

عليه وهكذا. . . وبهذه الأساليب المختلفة المتأثرة بهذه الاتجاهات المتعددة، صعب على الناظر في هذه التفاسير أن يجد هداية القرآن على الوجه الذي يطمئن إليه قلبه، ويشق له طريق الحياة ويلهمه الرشد والسداد.

ولقد نجم عن هذه الطريقة أن عدل ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التي سيقت لها، أو حكم فيها معنى لا تحتمله قضى عليها بالنسخ. وكثيرًا ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التي استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتخذوها أصولاً تحاكموا إليها في فهم القرآن والسنّة واستنباط الأحكام، ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام، بل تَعَدَّى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون: هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السنَّة فهي مؤولة بكذا وكذا، كما يقولون: هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا، وكما يقولون: هذه الآية أو تلك الآيات - وربما نيفت على السبعين- لا تتَّفِق ومشروعيّة القتال فهي منسوخة.

وهكذا صار القرآن فرعًا بعد أن كان أصلاً، وتابعًا بعد أن كان

متبوعًا، وموزونًا بغيره بعد أن كان ميزانًا.

يقول الله تعالى: ﴿... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...﴾ [النساء، ٤: ٥٩].

والرَّدّ إلى الله هو الرَّدّ إلى كتابه، والرَّدّ إلى الرسول هو الرَّدّ إلى سنَّتِه الصَّحيحة؛ ولكن هؤلاء عكسوا القضيّة، وقلبوا التشريع، وردُّوا كتاب الله وسنَّة رسوله إلى ما لهم من آراء، وما لمقلديهم من مذاهب.

وقد نقل الفخر الرازي وهو بصدد تفسير قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة، ٩: ٣١]، عن شيخه خاتم المحققين والمجتهدين: (قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجِّب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها!).

وكما نقل الرازي عن شيخه هذا، نقل غيره عن كثير من العلماء

كالغزالي والعز بن عبد السَّلام، مثله وأكثر منه.

كانت هذه الأساليب الملتوية في تفسير القرآن، وهذه النكسة التي أصيبت بها علاقة القرآن بالفقه والعقائد، سببًا في حدوث فوضى فكريّة فيما يَتَّصِل بالقرآن ومعاني القرآن، وكان لهذه الفوضى أثرها في إعراض الناس عن القرآن، وعن الاستماع لمفسِّري القرآن.

أما الطريقة الثانية فهي: أن يعمد المُفسِّر أوّلاً إلى جميع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحلِّلها ويَفْقَه معانيها، ويَعْرِف النِّسبة بين بعضها وبعض، فيتجلَّى له الحكم ويتبيَّن المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شيء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهي الحكيم.

وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المُثْلى، وخصوصًا في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد

والجماعات من أقضية، ويتَّصِل بحياتهم من شؤون.

وهي تمكِّن المُفَسِّر من علاج موضوعات عمليّة كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتَّصِل بسواه، ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعيّة: القرآن وأصول التَّشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وأدب الاجتماع. القرآن والسياحة، القرآن والاقتصاد. القرآن والتضحية، القرآن والبر وهكذا إلى آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمدًا قويّة في بناء الأمَّة ونهضتها. وبهذا يطمئن الناس بطريقة عمليّة واضحة إلى أن القرآن ليس بعيدًا عن حياتهم، ولا عن نواحي تفكيرهم، ولا عن مشكلاتهم التي تعرض لهم في كل حين، يطمئنُّون إلى أن القرآن ليس كتابًا روحيًا فقط مهمته أن يشرح طرق القربى إلى الله من غير أن يعنى بشيء من وسائل الحياة.

ولقد سَرَتْ هذه الفكرة الخبيثة الباطلة في نُفوس كثير من النّاس من حيث لا يشعرون، ليس عند سواد الناس وعامَّتهم فقط ولكن عند كثير ممَّن يزعمون لأنفسهم أو يزعم النّاس لهم تَفَقُّهًا في الدين أو

ثقافةً ونُبُوغًا في الحياة ولقد أصبح القرآن بهذا في نظر هؤلاء وهؤلاء كالأوراد يعكف عليها طوائف المريدين في أوقات الخلوة، واكتفوا منه بتلاوته، والاستماع إليه، والتَّعَوُّذ به والاستشفاء من الأمراض.

إنهم بهذا ظلموا القرآن. وظلموا أنفسهم وعقولهم. وظلموا الحياة الطيِّبة. وحرموها ينبوعًا لا ينتهي فيضه في العلم، والحكمة، والتَّشْريع، والسياسة، والتربية، والتَّهذيب. وكل ما تعالج به شؤون الحياة. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1] [الإسراء، ١٧: ٩].

وإذا كانت هذه الطريقة التي رسمناها تَجُود على الناس بتلك الثَّمَرات الطَّيِّبة، وتقيهم سوء الظَّنّ بكتاب الله وتشريعه، فإنَّها تَضَع المُفَسِّر أمام الموضوع الذي يريد أن يعالجه وجهًا لوجه، وتلقيه في البيئة الخاصَّة به من الآيات، فيستعين ببعضها على تفسير بعض. وإن أقوم تفسير للقرآن هو ما استقاه المُفَسِّر من القرآن نفسه.

(1) عرضت لهذا الموضوع في محاضرة ألقيتها في جمعية الشبان المسلمين ونشرتها مجلة الرسالة في العددين 407، 408 من السنة التاسعة

وكثيرًا ما يغيب عن النّاظِر في القرآن السِّرّ في آية معيَّنة حتى إذا ما سَمِعَ زميلتها الواردة في موضوعها علم ما غاب عنه، وانكشف أمامه ما كان خافيًا عليه.

وقد رغبنا ورغب أهل البصيرة في العلم، أن يُعْرَض تفسير القرآن على هذه الطريقة الجديدة، فَتُعْرَف موضوعات القرآن، وتُبْحَثُ بحثًا نقيًّا، بريئًا من الشَّوائِب التي من شأنها أن تستر الحَقّ أو تُشَوِّه جماله، بعيدًا عن الطريقة الملتوية، منزَّهًا عن الأقاصيص الدَّخِيلة والخَيالات التي لا يزكِّيها عقل ولا حقيقة.

وأرجو أن يجد النّاس في هذا النَّحو الجديد من التفسير ما تصبو إليه نفوسهم من تعرف هداية القرآن والوقوف على أسراره وحكمه، والانتفاع بمبادئه وتعاليمه، وقد عرضت منذ سنوات على هذا النحو موضوع: القرآن والمرأة، وأظن أن الذين قرأوه بإخلاص قابلوه بصدر رحب وقلب مطمئِنّ.

وقد رأيت أن يكون أوَّل موضوع أعرضه الآن على هذه الطريقة بعد «القرآن والمرأة» موضوع: «القرآن والقتال» . ذلك لأنَّ للقتال في هذا

الوقت شأنًا واقعيًّا ملأ الدنيا وشغل النّاس وله في سائر الأوقات شأن نظريّ يلوكه كثير من أرباب الأديان في الطَّعْن على الإسلام. فما أحوج الناس في وقتهم هذا وفي سائر الأوقات إلى معرفة أحكام القرآن في القتال. وفي أسبابه التي تحمل عليه. وغايته التي بها تضع الحرب أوزارها، وتلقي عن كاهل الناس أثقالها؛ ما أحوجهم إلى معرفة ذلك ليعلموا مقدار حكمة القرآن في القتال. وحرص الإسلام على السَّلام، وكراهته لإراقة الدماء وإزهاق الأرواح في سبيل الأثرة بحطام ليس له بقاء، والطمع الذي أساسه الشره وحُبّ الاغتيال، وليعلم هؤلاء الذين يروعون العالم من وقت لآخر بحروبهم الفاتكة مقدار انحرافهم العملي عن دينهم الذي يعتقدون أنه دين السِّلْم والسَّلام دون غيره من الأديان، وهل يقبل في نظر العقل أن الدِّين الذي يدعو إلى السِّلم، ويطلب إلى النّاس تسخير ما وهب الله لهم فيما ينفع لا فيما يضُرّ وفيما يعمر لا فيما يخرب، يرضى من معتنقيه أن يروعوا العالم هذا الترويع الذي يخلع القلوب، ويذيب الأفئدة، ويُحَوّل المُدُن العَامِرة إلى خَرَاب، والمَدَنيَّات الرَّاقية إلى فناء، و الحضارات المزدهرة إلى دمار، بينما يقولون بألسنتهم

إن دينهم دين السَّلام، وإن غيره دين الحرب والنضال، قام بالسَّيف وأسس على الإكراه!؟

طبيعـة الدعوة الإسـلامية

لتكن أول لبنة نضعها أساساً لعرض هذا الموضوع، معرفة طبيعة الدَّعوة الإسلاميَّة وهل هي بحاجة إلى إكراه الناس عليها؟

قد يدعى الإنسان إلى اعتناق مبدأ فيسارع إليه ويؤمن به، عن اطمئنان وارتياح وقد يكلِّف اعتقاد مبدأ آخر فيشق عليه وينفر منه. هاتان ظاهرتان نراهما في حياتنا، ونعرفهما من أنفسنا فما سبب ذلك.

سببه واضح فكلما كانت الحقيقة التي يدعى إلى اعتناقها يسيرة سهلة لا تعقيد فيها ولا تكلُّف، ولا تحمل في ظاهرها ولا في باطنها ما يصدم الفطرة البشريّة كانت حقيقة واضحة تدعو لنفسها ولا تحتاج إلى ما يحمل الناس عليها، وكلما كانت معقَّدة متناقضة ملتوية كانت مشكلة مظلمة. في طبيعتها ما يذود الناس عنها، ويصرف العقول عن النظر فيها، ومثل هذه تحتاج في اعتناق الناس لها إلى وسيلة تفرضها عليهم فرضاً، وتلجئهم إليها إلجاءً. وإذا كان هذا شأناً ملموساً في النفوس. فلننظر من أي نوع من هذين النوعين طبيعة الدعوة الإسلامية.

أرسل الله محمدًا على فترة من الرسل: داعيًا ومبشرًا ونذيرًا. وأوحى إليه كتابًا جمع بين دفتيه أصول السعادة للأمة والفرد: أمر بتحكيم العقل، عظّم من شأن البرهان، حبب في العلم والمعرفة، فصّل الأحكام، شرع الحدود، دعا إلى الرّحمة، رغّب في الخير، حَضَّ على السّلام، رفع الحَرَج، وتوخّى اليُسْر، أحكم أصول السياسة وقواعد الاجتماع، حارب البغي والفساد، حارب الرّكود العقلي، نعى على الاستنامة إلى ما درج عليه الآباء، صاح في النّاس أن لهم حياة اخرى أسمى من هذه الحياة، فيها النعيم الدّائم، والخلود الأبدي، وأن منتهى الإنسان من مبدئه، وآخرته من دنياه.

على هذا النحو كانت دعوة الرسول محمد ﷺ، وكان أوّلها وأساسها توحيد الخالق، والتوجُّه إليه وحده بالعبادة والإيمان به منزهًا عن شوائب النقص والاحتياج والمماثلة لشيء من خلقه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا

﴿تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام، ٦: ١٠١-١٠٣].

وأرشد إلى أنه يريد بذلك تكريم الإنسان ورفعه عن أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع. وأعلن أنه يقرِّر بتلك الدعوة سائر الأديان التي سبقته. وأنه لا يخالفها في أصل جاءت به وأنه لا يفرق بين رسول ورسول. الكل يقرِّر التوحيد. والكل يدعو إلى عبادة الله؛ والكل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والكل يدعو على الفضيلة وينفِّر من الرذيلة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة، ٢: ١٣٦-١٣٧]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ

فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران، ٣: ٦٤]. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت، ٢٩: ٤٦]. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ...﴾ [الشورى، ٤٢: ١٣]، إلى آخر الآيات التي حددت دعوة الإسلام، وهي - كما ترى في تلك الآيات - دعوة واضحة بَيِّنَة. سهلة خالية من التعقيد. بعيدة عن الغموض والإبهام. لا يعجز عقل عن هضمها ولا يلتوي فكر عن طريقها. وهي دعوة الأديان السابقة. ودعوة الرسل الأوَّلين. وهي نداء الفطرة، فليست غريبة على العقول. ولا بعيدة عن الأفهام. صبغة الله. ومن أحسن صبغة!: ﴿... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ [الروم، ٣٠: ٣٠].

هذه هي دعوة الإسلام. فهل مثل هذه الدعوة يحتاج في إيمان

الناس به إلى إكراه؟ إنه لمن الإساءة إليها، ومن الصد عنها، ومن وضع العراقيل في سبيلها أن يجعل الإكراه طريقاً من طرق الإيمان بها. إن الإنسان إذا شعر أنه مكره على شيء، ملجأ إليه صرفه ذلك عن تقديره واحترامه والتفكر فيه. فضلاً عن الإيمان به فاتخاذ الإكراه وسيلة إلى اعتناقها. فيه إلباسها ثوب التعقيد والالتواء والغموض، وإبعاد لها عن متناول العقول والقلوب، ولا ريب أن هذا ظلم لها أي ظلم، وهو في الوقت نفسه من العوامل التي تسيء إليها وتقف عثرة في طريقها، وليس من المعقول أن دعوة تريد لنفسها النجاح تحمل في طياتها عوامل ضعفها وفنائها، أو ما يسيء إليها ويشوِّه جمالها.

هذا معنى واضح، كان لنا الاستغناء به، والوقوف عنده مطمئنين إلى تقدير الناس له وتحكيمهم إياه فيما بين الإسلام والقتال من علاقة ولكنا لا نكتفي به بل نرجع إلى نصوص الدعوة نفسها فننظر هل منها ما يعرف الإكراه في العقيدة؟ وهل منها ما يحترم العقيدة التي بنيت على الإكراه؟ يعتقد كل إنسان أن الجواب عن هذا بَيِّنٌ واضح، ليس من جهة واحدة، بل من جهات متعدِّدة، ونَوَاحٍ مختلفة.

فالقرآن يُرْشِدنا في وضوح وجَلاء إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرد من النّاس أن يكونوا مؤمنين عن طريق القهر والإلجاء، بل عن طريق النظر والفكر والتدبُّر، ويُرْشِدنا مع هذا إلى أنه لو أراد منهم إيماناً كهذا الإيمان لطبعهم عليه، وجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، عن طبع وتكوين. لا يملكون الخروج عليه ولا التخلص منه. ولكنه لم يشأ ذلك بل ترك الناس وما يختارون لأنفسهم من إيمان أو كفر، وهداية أو ضلال، واكتفى بأن أخذ عليهم مواثيق الفطرة، وأشهدهم بها على أنفسهم، وأرسل إليهم رسلاً تذكرهم، وتدعوهم إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ﴿...لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ [النساء، ٤: ١٦٥]، ﴿... أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ...﴾ [المائدة، ٥: ١٩] وتلك سنة الله. قررها كتابه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ... ﴿١١٩﴾﴾ [هود، ١١: ١١٨–١١٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس،

١٠: ٩٩]، ﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة، ٥: ٤٨]، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام، ٦: ٣٥].

على هذه السُّنَّة الكونيَّة، جاءت الشَّرائع الإلهيّة تدعو إلى التّوحيد، وعبادة الخالق وحده على أساس النّظر والاستدلال، وعلى أساس الميل والاختيار، لا سلطان إلّا للعقل، ولا قهر إلّا للبرهان. ولا تجد شريعة من الشَّرائع الإلهيّة تفرض على النّاس الإيمان عن طريق القهر والإلجاء.

استمع إلى نوح وهو يقول لقومه: ﴿... يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود، ١١: ٢٨]. ثم استمع إلى قوم عاد وهم يقولون لرسولهم: ﴿... يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي

آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، ١١: ٥٣]. ثم استمع إليه وهو يقول: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ... ﴿٥٧﴾﴾ [هود، ١١: ٥٦-٥٧]. ثم استمع إلى إبراهيم وهو يدعو أباه في لطف ولين. عن طريق الحجّة والبرهان وعن طريق الوجدان والعاطفة: ﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا[2] ﴿٤٦﴾﴾ [مريم، ١٩: ٤٢-٤٦]. ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٣)[3] ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ

(2) أي زمانًا طويلاً

(3) أي معنيّا

وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم، ١٩: ٤٧-٤٨] . ثم استمع قول الله لموسى وهارون حين كلَّفهما الدّعوة إليه: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه، ٢٠: ٤٣-٤٤]. اقرأ كل هذا وتأمّله لتعلم أن السلاح الذي أعطاه الله لرسله المتقدِّمين -وهم يبلغون النّاس دعوته- لا يتجاوز البيئة الواضحة. ولفت الأنظار إلى ما لله من آثار، جريًا على سنَّته في الإيمان والكفر. والهداية والضَّلال.

وقد قصَّ الله كلّ ذلك على نبيّه في كتابه. وبيَّن له طريقة الرُّسُل في الدّعوة إليه. وقال له: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ...﴾ [الأنعام، ٦: ٩٠] ثم بيَّن له وسائل الدّعوة في آية فذّة جامعة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [النحل، ١٦: ١٢٥].

على هذا الأساس كانت دعوة الرسول محمد ﷺ إلى ربه: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف، ١٢: ١٠٨].

وإذا كان ما تقدّم شأنًا ينتظم دعوة محمد ودعوة إخوانه السابقين فإن هناك شيئًا آخر خَصّ الله به شريعة محمد ﷺ إذ جعله في دعوته أبعد الرسل عن الإكراه، وعن اتخاذ وسيلة من وسائل الإلجاء إلى الإيمان بطريق لا تعتمد على العقل المجرّد: ذلك أن الرُّسُل الأوّلين كان يصحب دعوتهم في كثير من الأحيان خوارق حيّة من شأنها أن تلجئ إلى الإيمان، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ولكن الله أبى في شريعة محمد ﷺ مجاراة المشركين الذين كانوا يقترحون مثل هذه الآيات: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء، ١٧: ٩٠-٩٣]، وبيّن أن آيته الوحيدة من جنس دعوته الواضحة: برهانيّة عقليّة، تمتلئ بها البصيرة، قبل أن يتناولها البصر، وتأخذ بالقلب، قبل أن يأخذها الحس

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ
اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت، ٢٩: ٥٠-٥٢]، ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم
مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦: ٤] .

بمثل هذه الآيات -وهو كثير في القرآن- يبين الله كفاية القرآن في الإيمان بدعوة محمد، وأنه لا يريد أن يلجئهم لما تخضع له أعناقهم، كما يبين من جهة أخرى أن مهمة الرسول معهم لا تتجاوز التبليغ والإنذار والتبشير وقد قرّر الله مهمّته بها في مكي القرآن يوم كان المسلمون قلّة لا حول لهم ولا قوّة، وفي مدنيه يوم صارت إليهم القوّة وأصبحوا أولي بأس شديد. فمن المكي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير، ٨١: ٢٧-٢٨]. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا

مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية، ٨٨: ٢١-٢٦]. ومن المدني قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور، ٢٤: ٥٤]

وقد تضافرت آيات كثيرة على تقرير هذا المعنى وتوكيده، في بيان مهمّة الرسول وشأنه في الدّعوة إلى دين الله. وما أبعد هذا المعنى عن رائحة الإكراه، وما أشد منافرته لاتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدّعوة.

أكثر من هذا كلّه أن القرآن يقرّر بوضوح وجلاء، أن الإيمان الذي يجيء عن طريق الإكراه لا قيمة له، ولا كرامة لصاحبه، فهو يقول لفرعون حين أدركه الغرق وقال: ﴿... آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس، ١٠: ٩٠-٩١]. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر، ٤٠: ٨٤-٨٥].

وكذلك يقرّر القرآن أنه لا يقبل التوبة التي تنبعث عن الإكراه ومعاينة العذاب: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...﴾ [النساء، ٤: ١٨].

وإذا كان القرآن يقرِّر كما ترى إهدار الإيمان والتوبة اللذين يدفع إليهما الإكراه، ولا يكون القلب في سعته مطمئنًا إليهما، فكيف يعقل أن يطلب أو يشرع الإكراه في الدين أو على الدين من أي لون كان؟! ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، ٢: ٢٥٦].

تبيَّن مما تقدم أنه لا يوجد سبب ما، يبرِّر لأحد ما، أن يعتقد أو يزعم أن من أساليب الدّعوة الإسلاميّة حمل الناس على الإيمان بها عن طريق السيف والقتال، ويتلخّص هذا الفصل في النتائج الآتية:

أولاً: ليس في طبيعة الدعوة الإسلاميّة من التَّعقيد والغموض، والمشقّة العقليّة، ما تحتاج معه إلى إكراه جلي أو خفي[٤].

(4) يراد بالإكراه الجلي ما كان بالقوة المادية كالحديد والنار وبالخفي الخوارق الحسية التي

ثانيًا: أن الشريعة الإسلامية، أخذًا من كتاب الله، لا تغاير أو تخالف سنَّة الله الكونيّة التي جعلها أساسًا لإيمان من يؤمن وكفر من يكفر، وهي ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع.

ثالثًا: أن الشريعة الإسلاميّة، أخذًا من كتاب الله أيضًا، لا تبيح نصوصها المحكمة الواضحة اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدّعوة إلى الله، شأنها في ذلك شأن الشَّرائع السّابقة.

رابعًا: أن صاحب الدّعوة الإسلاميّة ليس مسؤولاً أمام ربّه إلَّا عن مهمّة الرِّسالة التي بيَّنها القرآن في مدنيه ومكيه، وهي التبليغ والإنذار، وليس مطالبًا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم[٥].

خامسًا: أن كتاب الله مصدر الدّعوة الإسلاميّة، لا يحترم إيمان المكره، ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدّعوة.

هذه النتائج يعلمها الناس من القرآن نفسه. والإيمان بها جزء من الإيمان بالقرآن. ولهم بعد ذلك أن يسألوا: إذا كان الشّأن كما تعطي

تخضع لها الأعناق

(5) وهذا غير مسؤوليته ومسؤولية خلفائه عن تنفيذ شرعه في أمته

هذه النتائج التي ينطق بها القرآن. فما شأن آيات القتال التي وردت في القرآن؟

وهذا هو البحث الثاني.

آيات القتال

نعرض في هذا الفصل آيات القتال التي وردت في القرآن لنفهم معناها الذي تدل عليه، وغرضها الذي سيقت له ولنعرف نسبة بعضها إلى بعض، ثم نخلص بعد إلى نتيجتها التي يتبين بها شأن هذه الآيات الآمرة بالقتال مع النتائج التي وصلنا إليها في الفصل السابق.

عرض القرآن لنوعين من أنواع القتال: أحدهما قتال المسلمين للمسلمين، والثاني قتال المسلمين لغير المسلمين.

أما الأول: فهو شأن من الشؤون الداخليّة للأمّة، ونظام من نظمها التي تعنيها وحدها ولا تعني أحدًا سواها فرض القرآن حالة بغي وخروج على النظام العام تقع بين طوائف الرعيّة بعضها مع بعض، أو بين الرعيّة وراعيها فوضع لها تشريعًا من شأنه أن يحفظ على الأمّة وحدتها وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها، ويقي المجموع شر البغي والتعادي. وهذا هو قوله في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات، ٤٩: ٩-١٠].

فهذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ولا يستطاع حلّه بالوسائل السلميّة. فتلجأ كل منها إلى القوّة وتحكيم السيف. ثم توجب الآية لهذا على الأمّة ممثلة في حكومتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشّقاق. وتحاول الإصلاح بينهما، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات، وأخذ كل ذي حق حقّه، ورد البغي واستقر الأمن، فقد كفى الله المؤمنين القتال. وإن بغت إحداهما على الأخرى، واستمرّت على العدوان وأبت أن تفيء إلى أمر الله، وتنزل على حكم المؤمنين كانت بذلك باغية خارجة على سلطة القانون متمرِّدة على النظام. فيجب على جماعة المسلمين قتالها حتى تخضع وترجع إلى الحق وتشير الآية بعد هذا إلى سر النجاح في حل ما ينشأ بين الطوائف من خلاف وهو أنه لا ينبغي أن يتخذ من رجوع إحدى

الطائفتين إلى الحق سبب للحيف عليها، وانتقاصها حقها ولكن يجب أن يحكم العدل، وأن تأخذ كل طائفة حقها كاملاً غير منقوص. تأمل قوله تعالى في تذييل الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

وكما ترشد الآية إلى هذا. ترشد إلى أن القصد من التشريع إنما هو المحافظة على وحدة الأمة وعدم تفرقها، والاحتفاظ بأخوتها الدينية التي هي شأن من شؤون الإيمان فتقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات، ٤٩: ١٠].

وهذا هو التشريع الحكيم الذي نطق به القرآن الكريم على لسان النبي الأمي طريقًا للسلم وقضاء على البغي والعدوان؛ نطق به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، قبل أن يعرف العقل البشري ما سمّاه «عصبة الأمم» أو «مجلس الأمن» واتخذه -كما يقولون- سبيلاً لحفظ السّلام واستقرار الحرّيات وتمتّع الدول بحقوقها.

هذا هو التّشريع الحكيم، الذي لو فهمته الأمم حق فهمه ومنحته العناية التي تجدر به، وسارت على منواله، لما ضلّت سبيل الحكمة! ولسلمت من هذه الويلات المتكرِّرة، التي يثيرها البغي والعدوان من

جانب، والتخاذل وعدم التضامن من جانب آخر.

هذا هو شأن القتال الذي شرعه القرآن بين المسلمين والمسلمات وواضح أنه لا صلة له بأصول الدّعوة الإسلامية والإيمان بها.

أما النوع الثاني: وهو قتال المسلمين لغير المسلمين فقد عرض له القرآن في كثير من آياته وسوره وتناوله من جميع جوانبه: عرض للأسباب الباعثة عليه، وللغاية التي ينتهي عندها، وعرض لما يجب على المسلمين من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ومفاجآته. وعرض لكثير من قواعده وأحكامه. ولما يتّصل به من هدنة أو معاهدات، ونحن نذكر فيما يأتي: الآيات التي عرضت لسبب القتال والآيات التي عرضت لغايته التي ينتهي عندها، ثم نعرض لعلاقة آيات العفو بآيات القتال.

أقام المسلمون في مكّة أعوامًا يسامون سوء العذاب، ويصادرون في حريتهم الدينيّة، ويضطهدون في عقيدتهم التي اطمأنوا إليها ويفتنون في أموالهم وأنفسهم، حتى أُكرهوا على الهجرة، فخرجوا من ديارهم وأوطانهم، ثم أقاموا في المدينة صابرين لأمر الله راضين بحكمه، وكانوا كلما همَّت نفوسهم بالرَّدّ على الظلم، أو تطلَّعَت إلى الانتقام من

الظالمين، ردَّهم رسول الله إلى الصّبر، وانتظار أمر الله قائلاً: «لم أومر بقتال لم أومر بقتال» ظلوا كذلك حتى كاد اليأس يساورهم، ويفضي بهم إلى الظنون. عند ذلك أنزل الله أوّل آية في القتال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[6] [الحج، ٢٢: ٣٩-٤١].

تناولت هذه الآيات الكريمة الإذن بالقتال. وعللت هذا الإذن بما مني به المسلمون من الظلم وما أكرهوا عليه من الهجرة، والخروج من الديار والأوطان بغير حق.

(6) الصوامع: معابد الرهبان. البيع: كنائس النصارى، واحدها بيعة بكسر الباء. الصلوات: كنائس اليهود

ثم بيّنت أن هذا الإذن موافق لما تقضي به سنة التدافع بين الناس حفظًا للتوازن ودرءًا للطّغيان، وتمكينًا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم، والبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيه، ثم أرشدت إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنَّته من ينصره ويتّقيه فلا يتّخذ الحرب أدى للتخريب والإفساد. وإذلال الضعفاء وإرضاء الشهوات والمطامع. وأنه لا ينصر إلَّا من إذا تمكّن في الأرض عمرها، وأطاع أمر الله فيها، وكان داعي خير ومعروف لا داعي منكر وفساد. والله يعلم المفسد من المصلح ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُورِ﴾.

هذه الآية هي الآية الأولى -كما قلنا- من آيات القتال وهي آية واضحة ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه في العقيدة. وإنما هي على العكس تقرر أن التدافع بين الناس سُنَّة من سُنَن الله الكونيّة لا بد منها في حفظ النظام. وبقاء الصّلاح والعمران. لولاها لفسدت الأرض. وهدمت أماكن العبادة على اختلافها. وتباين ألوانها. وإنما يكون ذلك بتحكم الأقوياء الطغاة في الأديان يعبثون بها ولا رادع. ويكرهون عليها ولا مدافع والآية لا تنظر في ذلك إلى المسلمين خاصّة. بل تقول في

جلاء ووضوح ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ على هذا الوجه من العموم.

نقرأ بعد هذا آيات القتال التي وردت في سورة البقرة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ(7) وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة، ٢: ١٩٠-١٩٤].

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون في سبيل الله الذين يقاتلونهم

(7) ثقفتموهم: وجدتموهم

وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا، وتشتيتهم كما شتتوهم من قبل. وتنهاهم عن الاعتداء وتؤكّد هذا النَّهي بكراهة الله للعدوان، وعدم محبَّته للمعتدين. ثم ترشد إلى أن إخراج الناس من ديارهم، وترويعهم في أمنهم، والحيلولة بينهم وبين الاطمئنان على الأنفس والأموال، فتنة أشد من فتنة القتل وإزهاق الأرواح، فليقاتل العاملون عليها والمثيرون لها كما يقاتل المقاتلون. ثم تمنع الآيات المسلمين عن القتال في الأماكن المقدَّسة، والأزمنة المقدَّسة حتى يقاتلوا فيها، فإن انتهكت حرمتهم فيها، واستبيح قتالهم، ساغ لهم أن يردوا العدوان مثلاً بمثل، وجزاء بجزاء، ثم تخلص الآية بعد هذا وذاك إلى بيان الغاية التي تضع الحرب عندها أوزارها، وهي ألَّا تكون فتنة في الدين وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حريّتهم الدينيّة من غير اضطهاد فيها ولا تعذيب عليها فإذا ما تحقق هذا الغرض، واطمأنت إليه النفوس، وجب وقف القتال.

هذه الآيات بما تضمنته من المبادئ التي بيَّنا في سبب القتال وغايته ليس فيها ما يقترب من فكرة الإكراه على قبول الدّعوة، بل هي

وسابقتها ناطقة بأجلى بيان، وأوضح عبارة، بأن السبب الذي من أجله أمر المسلمون بالقتال، هو الاعتداء عليهم؛ وإخراجهم من ديارهم، وانتهاك ما عظم من حرمات الله، ومحاولة فتنة الناس فيما يدينون. وكذلك هي ناطقة بأن الغاية التي يجب على المسلمين أن يكفوا عندها عن القتال، هي انتهاء العدوان عليهم، وتقرر الحرية الدينية خالصة لله، غير متأثرة بضغط ولا إكراه.

هذه المبادئ التي أرشدت إليها تلك الآيات، نراها بعينها أو قريبًا منها، في كثير من آيات القتال الأخرى الواردة في سور النساء والأنفال، والتوبة: ففي سورة النساء ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء، ٤: ٧٥].

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى الله أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالله أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء، ٤: ٨٤].

﴿... فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء، ٤: ٩٠].

﴿... فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء، ٤: ٩١].

اقرأ هذه الآيات، وقف عند قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ لتعلم روح الفتنة الذي كان يحمله القوم للمسلمين، والذي لأجله أمر المسلمون بقتالهم وهذا هو عين ما قررته سورة البقرة فيما سبق: وهو عين ما تقرر٢ھ سورة الأنفال والتوبة أيضًا، ففي سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال، ٨: ٣٩]. وهي على غرار ما جاء في سورة البقرة، وفي سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا

بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة، ٩: ١٢-١٣].

وقوله: ﴿... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، ٩: ٣٦].

اقرأ هذه الآيات، وتأمّل أولاً قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ [التوبة، ٩: ١٢] وتأمل ثانيًا قوله: ﴿... وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ...﴾ [التوبة، ٩: ١٣]، وثالثًا قوله: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ...﴾ [التوبة، ٩: ٣٦] تأمل كل ذلك لتعلم أن هذه الآيات نزلت في شأن قوم مردوا على الفتنة، وتأصلت فيهم عوامل الإفساد حتى لم يصبح للعهود في نظرهم قيمة، ولا للفضيلة عندهم ميزان، وليس من شك في أن قتال هؤلاء، وتطهير الأرض منهم، والقضاء على فتنتهم إنما هو من قبيل الخير العام، يسدى إلى الإنسانيّة جمعاء.

وقد جاء في سورة التوبة بعد هذه الآيات آيتان ربما أوهم ظاهرهما خلاف ما تقرر هذه الآيات في سبب القتال، نسوقهما هنا

ونبين ما يدلّان عليه في ضوء الآيات المتقدّمة التي تعتبر - لكثرتها ووضوحها- أصلاً في مشروعية القتال وسببه يجب أن يتحاكم إليه ويخرج ما سواه عليه.

أولاً: قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة، ٩: ٢٩].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، ٩: ١٢٣].

فالآية الأولى تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة هذه صفتها (لا يؤمنون بالله: الخ) قد ارتكبت من قبل مع المسلمين ما كان سببًا للقتال من نقض عهد وانقضاض على الدّعوة ووضع العراقيل في سبيلها، فهي لا تجعل عدم الإيمان وما بعده سببًا للقتال، ولكنها تذكر هذه الصفات التي صارت إليهم، تبيينًا للواقع، وإغراء بهم مع

تحقق العدوان منهم؛ غيروا دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دونه يحللون لهم بالهوى ويحرمون، غير مؤمنين بتحليل الله ولا تحريمه، وليس عندهم ما يردعهم عن نقض عهد، ولا مصادرة حق، ولا رجوع عن عدوان وبغي.

هؤلاء هم الذين تأمر الآية باستمرار قتالهم حتى تأمن شرهم. وتثق بخضوعهم، وانخلاعهم من الفتنة التي يتقلبون فيها، وجعل القرآن على هذا الخضوع علامة هي دفعهم الجزية التي هي اشتراك فعلي في حمل أعباء الدولة، وتهيئة الوسائل إلى المصالح العامّة للمسلمين وغير المسلمين[8].

---

(8) فليست الجزية كما يتصوّرها بعض الناس بدلاً عن إسلامهم أو دمائهم وإنما هي كما قلنا علامة لخضوعهم وكفهم عن القتال ومصادرة الدعوة، واشتراك في مصالح الدولة نظير حماية أنفسهم وأموالهم؛ وقد ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج من ص35 «أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له، واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضي الله عنه إلى أمراء المدن التي تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك» وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم.

وفي الآية ما يدل على سبب القتال الذي أشرنا إليه وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ فإنهما يقرران الحال التي يصيرون إليها عند أخذ الجزية منهم، وهي خضوعهم، وكونهم بحيث يشملهم سلطان المسلمين؛ وتنالهم أحكامهم، ولا ريب أن هذا يؤذن بسابقية تمردهم وتحقق ما يدفع المسلمين إلى قتالهم.

هذا هو المعنى الذي يفهم من الآية، ويساعد عليه سياقها، وتتفق به مع غيرها. ولو كان القصد منها أنهم يقاتلون لكفرهم وأن الكفر سبب لقتالهم لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم.

أما الآية الثانية: ﴿... قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم...﴾ فليست واردة مورد الآيات السّابقة في بيان سبب القتال وما يحمل عليه، وإنما جاءت إرشادًا لخطة حربية عملية ترسّم عند نشوب القتال المشروع فعلاً، فهي ترشد المسلمين إلى وجوب البدء عند تعدُّد الأعداء بقتال الأقرب فالأقرب عملاً على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين،

وتسهيلاً لسبل الانتصار[9].

وهذا المبدأ الذي قرره القرآن من المبادئ التي تعمل بها الدول المتحاربة في هذا العصر الحديث، فلا تخطو دولة مهاجمة خطوة إلّا بعد إخلاء الطريق أمامها، والاطمئنان إلى زوال العقبات من سبيلها.

وبهذا يتبيّن أنه لا صلة للآيتين بسبب القتال الذي تضافرت الآيات الأخرى على بيانه.

اتضح مما تقدّم:

---

(9) قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر هذه الآية: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وزعم أن الدين الإسلامي يأمر بقتال الكفار عامة، حصل اعتداء منهم أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام - قالوا: وقد استقر الحكم في الشريعة على هذا. والواقع أن المراد من كلمة الكفار في الآية ونظائرها، المشركون المحاربون الذين قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، ووقفوا فتنة للناس في دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم أوائل سورة التوبة.

وكذلك المراد من كلمة «الناس» الواردة بحديث «أمرت أن أقاتل الناس»، فإن الذي يتوقف انتهاء قتاله على ما ذكر في الحديث بالإجماع هم مشركو العرب خاصة. أما غيرهم فيكفي في انتهاء قتاله أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وبهذا تتفق الآيات بعضها مع بعض، ويجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل.

١. أنه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم تدلّ أو تشير إلى أن القتال في الإسلام،لحمل الناس على اعتناقه.
٢. وأن سبب القتال - كما تدلّ عليه الآيات السابقة - ينحصر في رد العدوان وحماية الدّعوة وحريّة الدين.
٣. وأن القرآن حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وابتغاه طريقًا إلى السَّلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة.
٤. وأن الجزية لم تكن عوضًا ماليًّا عن دم أو عقيدة، وإنما هي علامة على الخضوع وكَفّ الأذى ومشاركة في حمل أعباء الدولة.

وليس لأحد بعد هذا أن يفتري على الإسلام، أو يسيء فهم آيات القرآن، فيزعم ما يزعمه الجاهلون من أن الإسلام قرَّر القتال طريقًا لدعوته، ووسيلة للإيمان به، وأنه إنما قامت دعوته وانتشرت عقيدته على أساس من الضغط والإكراه.

ونحن نسوق هنا آية في سورة الممتحنة هي بمثابة دستور إسلامي في معاملة المسلمين لغير المسلمين:

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة، ٦٠: ٨-٩].

اقرأ هذا الدستور ثم ارجع إلى سورة المائدة وهي من أواخر القرآن نزولاً، واقرأ منها فيما يتّصل بعلاقة المسلمين بغيرهم قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة، ٥: ٥].

اقرأ هذا وذاك لتعلم روح السموّ التي يحملها الإسلام في علاقته بغير معتنقيه: بر، وقسط، وتعاون، ومصاهرة. وهي علاقة يتضاءل

أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشري في العلاقات الدوليّة العامّة.

علاقة آيات العفو بآيات القتال

ويجدر بنا ألَّا نترك هذا المقام حتى نعرض لمسألة شغلت أذهان كثير من الناس الذين ينظرون في القرآن، ويقارنون بعض آياته ببعض.

وأمامنا من هؤلاء طائفتان:

طائفة خصوم الدين الذين يتلمّسون في القرآن الكريم مطعنًا.

وطائفة من المفسِّرين تحملهم غيرتهم الدينيّة على التوفيق بين ما يظنّ فيه تناقضًا مع غيره من آيات القرآن، فيجنحون إلى القول بنسخ بعض الآيات لبعض وقد أسرف بعض هؤلاء فيما اندفعوا إليه بما يخيل أنهم مهَّدوا به طريق الطَّعن لخصوم الدِّين والقرآن من حيث لا يريدون.

فأما الخصوم فقد نظروا فيما بين آيات القتال بعضها مع بعض وفيما بينها جملة، وبين آيات العفو والصفح فقالوا: بينما ترى بعض آيات القتال يأذن في القتال ويبيحه إذا البعض الآخر يحتمه بشدَّة ويطلبه بتحريض، وبينما ترى بعض هذه الآيات يطلب قتال المعتدي ويمنع البدء بالعدوان، ترى البعض الآخر يأمر بقتال الجميع من

غير رحمة ولا هوادة ولا تفريق بين معتد وغيره وبينما ترى جملة هذه الآيات تطلب القتال وتقرِّره، ترى آيات أخرى كثيرة منبثّة في جميع سُوَر القرآن تأمر بالعفو والصَّفح ومقابلة السيِّئة بالحسنة، والدّعوة إلى الله بالحكمة.

وهذه كلّها أنواع من التناقض - كما يزعمون- لا يتّفق معها أن يكون القرآن الذي جاء به محمد وحيًا يوحى إليه من عند الله؟

وأما أصدقاء القرآن وخدمته فيقولون: إن آيات القتال نسخت آيات العفو والصّفح، حتى قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [فصلت، ٤١: ٣٤] وقوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل، ١٦: ١٢٥].

ويقولون إن آية التوبة ﴿... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ...﴾ [التوبة، ٩: ٣٦] نسخت ما تقدّم بين يديها من آيات العفو.

ومن عجيب أقوالهم أن آية ﴿... وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ...﴾ في البقرة نسخت لآية قبلها ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ

يُقَـاتِلُونَكُمْ ... ﴾، وأن آية ﴿وَقَاتِلُوهُـمْ حَـتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْـنَةٌ ... ﴾ [البقرة، ٢: ١٩٣/ الأنفال، ٨: ٣٩]، في هـذه السورة أيضًا نسخت التي قبلها ﴿... وَلَا تُقَـاتِلُوهُـمْ عِنـدَ الْمَسْجِـدِ الْحَـرَامِ حَـتَّىٰ يُقَـاتِلُوكُمْ فِيـهِ ... ﴾.

فهـذه الجملة القرآنيـة التي وردت في سورة البقـرة مكوّنـة من أربع آيات صـارت بهـذا الصنيع آيتين ناسختين وآيتين منسوختين الثانيـة نسخت الأولى، والرابعـة نسخت الثالثة!!

وقد قال الإمام الرازي في تفسيره تعليقًا على هـذا الرأي: إنه يبعـد من الحكيـم أن يجمع بين آيـات متواليـة تكون كل واحـدة منهـا ناسخة للأخـرى.

ولا يبعـد أن يكون هـذا الصنيع مهّـد لخصوم الدين أن يقولوا بتنـاقض القـرآن، إنهـم لا يريـدون النسخ الذي يدعيـه أصدقاء القـرآن، وكيـف يقبـلون دعواه منـا في القـرآن ومن علمائنـا، من لم يقبـله فيـه؟.

ولعـلك تشعـر بعـد العـرض الذي عرضنا بـه آيات القتـال أنـه لا تنـاقض ولا تعـارض بين بعضهـا وبعـض ولا محـل للقول بـالنسخ فيهـا لأن النـسخ

لا يكون إلَّا عند التعارض، فهي إذًا محكمات باقيات تتلاقى جميعها عند حد واحد. تقرر حكمًا واحدًا وسببًا واحدًا وغاية واحدة.

أما آيات الصفح والعفو فهي ترمي إلى تكوين الجانب الخلقي ويجب العمل بها في دائرتها التي لا تخدش العزّة والكرامة، ولكل مقام مقال، ولكل حال تشريع، فهي أيضًا محكمات باقيات.

إن التّشريع الذي يبنى على مراعاة الأحوال وشؤون الأفراد والجماعات، ويطلب من الناس أن يسلكوا في كل حالة ما يناسبها لا يمكن أن يرمي بأنه تشريع متناقض أو أن بعضه ناسخ لبعض وإنما هو في نظر العقول السليمة تشريع حكيم غاية في الدِّقّة، ناهض بأهله، محقق لغايته وهي سعادة الفرد والجماعة.

آيات تنظيم القتال

كان من نتائج البحث الأوّل أن سبب القتال كما يدل عليه القرآن ينحصر في رد العدوان، وحماية الدّعوة، وحريّة الدِّين. وفي هذه الدائرة وحدها شرع الله القتال، وحثّ عليه، ورغب فيه. وأرشد إلى كثير من قواعده وآدابه التي تضمن النصر والظفر. ونعرض في هذا الفصل الآيات التي عرضت للقتال من هذه الناحية.

وإن من يتتبّع هذه الآيات من كتاب الله يجدها تضع للمسلمين مبادئ عامّة يتكوّن منها قانون موضوعي للقتال، له مكان القمّة بين نظم العصر الحديث، والمدنيّة الحاضرة.

والقانون الموضوعي للقتال في أمّة تريد لنفسها العزّة والكرامة، يقوم على عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: تقوية الروح المعنوية في الأمّة.

العنصر الثاني: إعداد القوّة الماديّة.

العنصر الثالث: التنظيم العملي للحرب.

وقد تناول القرآن، وهو يرسم للناس سبل الحياة الطيّبة، هذه العناصر الثلاثة بأساليب تنتظم كل ما تجود به القرائح في شتّى العصور ومختلف الحضارات، لا تقف عند عصر، ولا تضيق بما يجد من نظم وأدوات، ثم هي مع قوّتها واتّساعها تملك على النّاس أفئدتهم، وتملؤها بمعاني الرّحمة والشّفقة، كما تعمرها بروح الإخلاص وابتغاء مرضاة الله في تطهير الأرض من الفساد وخلوّها من عوامل البغي والعدوان. وإنك لتجد هذه المعاني ماثلة في كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة.

فالعنصر الأوّل: وهو تقوية الروح المعنويّة عند الأمّة يقول القرآن فيه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيـلِ الطَّـاغُوتِ فَقَـاتِلُوا أَوْلِيَـاءَ الشَّيْطَـانِ ۖ إِنَّ كَيْـدَ الشَّيْطَـانِ كَانَ ضَعِيفًـا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء، ٤: ٧٤-٧٦].

يحرِّك عواطفهم نحو القتال، فيذكر لهم أنه قتال في سبيل الله الذي يضاعف ثواب العالمين وأجر المجاهدين. قتال في سبيل إنقاذ الضعفاء والبر بالإنسان ومقاومة الجبروت والطغيان، قتال لدحض عوامل الشَّرّ والإفساد.

ويقول: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة، ٩: ١٩-٢٢].

اقرأ هذه الآية وكرّرها في نفسك مرّة بعد أخرى ثم قف طويلاً عند قوله: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لتعلم أن أجر

المجاهدين في سبيل الله بالنفس والمال لا يقف عند حَدّ، ولا يحيط به إلّا عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة، ٩: ١١١].

يذكّرهم بهذا العهد الإلهي الذي أخذه على نفسه للمجاهدين في سبيله، وبَيَّنه في جميع كتبه؛ ويبرزه في صورة تعاقد بين بائع ومشتر يقضي على كل من الطرفين الوفاء بما التزم من حقوق ذلك التعاقد، ويؤكّد لهم أن القيام بمقتضى هذا العهد والتضحية في سبيل المحافظة عليه هو الفوز الذي ليس بعده فوز.

ويقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي

سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة، ٩: ٢٤].

تستوعب هذه الآية جميع النواحي التي ينبعث من قبلها في العادة الجبن والخور، وتطلب من المؤمنين التّضحية بها جميعًا في سبيل الله والحَقّ، في سبيل الخير والسَّعادة. فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة، ولا الأموال التي بذلت في سبيل الحصول عليها الراحة والهناءة، ولا التجارة التي يخشى بوارها، ولا المساكن المحببة إلى النفوس، لا شيء من ذلك كلّه يصح أن يحول بين المؤمنين وما تقتضيه محبّة الله ورسوله من تضحية وجهاد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات، ٤٩: ١٥]، فالإيمان الصادق عقيدة في الله والرَّسول تسمو عن الشُّكوك والرِّيب، وتقضي ببذل النَّفس والمال، جهادًا في سبيل الله.

بمثل هذا الأسلوب القوي، وهو كثير في القرآن، يحارب الله عوامل الضَّعف ونزعات الخوف، ويغرس في نفوس الأمّة خلق الشَّجاعة

والتَّضحية والاستهانة بزخرف هذه الحياة في سبيل الحق ونصرته.

وكان يعمل القرآن على غرس هذه الأخلاق في نفوس الأمّة عامّة ويبني منها رجالاً أقوياء الرُّوح والقلب، يعمل بوجه خاصّ على غَرسِها في نفوس المُجاهِدين أنفسهم، فهو يقول فيما يحكيه عن المجاهدين الذين تم لهم النّصر والظّفر فيما مضى: ﴿... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ... ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة، ٢: ٢٤٩-٢٥٢]. ويقول مخاطبًا نبيّه ومذكرًا له بموقفه وهو يبعث في نفوس المُجاهدين القوّة والشَّجاعة، ويحثّهم على الإقدام والثبات، ويصوّر لهم مدد الله الذي يطمئنهم به: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ(١٠) هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ

(10) من فورهم: يعني من ساعتهم: مسومين -بالفتح- معلمين. وبالكسر: معلمين

رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران، ٣: ١٢٤-١٢٦]. ويقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران، ٣: ١٣٩- ١٤٢].

يهون عليهم ما يصيبهم في سبيل الله ويرشدهم إلى أن الإيمان يجعل من صاحبه قوّة لا تلين؛ وعزمة لا تفل، وأن سنّة الله في القتال أن يداول بين الفريقين، وأن العاقبة للصّابرين: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ

أنفسهم بعلامة. وقيل: مرسلين خيلهم في الغارة. قرح: جرح، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر.

اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ٤: ١٠٤].

هذا قليل من كثير في تقوية القرآن للرّوح المعنويّة عند الأمّة عامّة، والمجاهدين خاصّة.

والعنصر الثاني: وهو إعداد القوّة الماديّة، يقول القرآن فيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ [الأنفال، ٨: ٦٠]. ويقول: ﴿... وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ...﴾ [النساء، ٤: ١٠٢].

ترشد الآية الأولى إلى أمرين لهما خطرهما في حياة الأمم: القوّة والرِّباط. فالقوّة تتناول العدد والعُدّة «وهي كلمة تتَّسع لكلّ ما عُرِفَ ويُعْرَف من آلات الحَرْب، وآلات النّقل وموادّ التّموين. والرِّباط كلمة تتَّسع لكلّ ما عُرِفَ ويُعْرَف أيضًا في تحصين الثّغور ومداخل العدوّ ثم بيّنت الآية بعد ذلك فائدة الإعداد للسِّلم والاستقرار، وهي إرهاب العدُوّ حتى لا تحدِّثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضّعف والتخاذل.

أمّا الآية الثّانية فهي ترشد إلى أخذ الحيطة والحَذَر من العدو مخافة أن ينقض انقضاض الصّاعقة وهم عنه غافلون.

إشارة القرآن إلى ما في الحديد والمعامل من وجوه النّفع:

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نسوق هذه الآية الفَذّة، ذات المَغزَى العظيم في لَفْت الأنْظَار، وتنبيه العقول، إلى ما في «الحديد» من قوّة تشدّ عَضُد المؤمنين في التمسُّك بحقِّهم، والمحافظة عليه هي قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد، ٥٧: ٢٥].

انظر كيف زاوج بين الكتاب والميزان، وبين الحديد في أنه أنزل الجميع، وكيف خلع على الحديد الذي به قوام الميزان وحفظ القسط، هذين الوصفين: البأس الشّديد والنّفع العظيم. تأمل هذا ثم انظر ممَّ تتخذ أدوات القتال برِّيَّة وبحريَّة وجوية، وما الحديد في كل هذه الأدوات؟ ثم تأمَّل في قوله بعد ﴿... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ

بِالْغَيْبِ...﴾ لتعلم أنَّ نَصْرَ الله معقود لمن سَخَّر الحديد، واتّخذ منه القوّة والبأس.

وإذا عرف المسلمون قيمة فَضْل الله عليهم وعلى النّاس «بالحديد» الذي أنزله، فليعرفوا فضل الله على نبيّه داود في إلهامه طرق الانتفاع بهذه المادّة. وقد قَصّ الله علينا ذلك في كتابه لتكون لنا منه العبرة والذكرى. اقرأ قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي[11] مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ[12] وَقَدِّرْ[13] فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ، ٣٤: ١٠-١١].

ثم اقرأ فضل الله على سليمان في قوله من السورة نفسها: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ

---

(11) في الألوسي: «وقيل المعنى: ارجعي إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين واستخراج معدن ووضع طريق" أه

(12) السابغات: الدروع

(13) السرد: النسج، واستعير لنظم الحديد. والمعنى أحكم حلقها في الوضع والمقدار بحيث تقوى على الدفاع ولا ينال صاحبها من خللها أ هـ ألوسي

الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ[14] وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ[15] ﴿١٣﴾﴾ [سبأ، ٣٤: ١٢-١٣].

ويجدر بنا أن نَسُوق هنا كلام الرّازي في تفسير قوله تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص، ٣٨: ٣٠-٣٣] لتعلم أن الرباط شأن قديم اتّخذته أقدم الأمم حضارة، وأكبرهم عدّة وأقواهم فكرة – قال:

---

(14) القطر: النحاس الذائب والإسالة بمعنى الإلانة التي كانت لداود.

(15) ترشد الآية إلى أن مصانع سليمان كانت تخرج القصور وأدواتها من الجفان والقدور وكانت تخرج التماثيل، وقد فسرت بتفاسير كثيرة منها أنهم كانوا يعملونها كالحيوانات في أسفل الكرسي، وكانت تحرك بآلات عند الصعود. قال الألوسي: وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة

«إنَّ رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد. ثم إنّ سليمان عليه السَّلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنّما أحبّها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله «عن ذكر ربي». ثم إنه عليه السَّلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلمّا عادَت إليه طَفِقَ يَمْسَح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور: (الأول) التشريف لها، والإبانة عن عزّتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو. (الثاني) أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أدنى الأمور بنفسه. (الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض».

وممّا يتَّصل بالصِّناعات وفائدتها في الأمم، ما حكاه الله عن نبيِّه نوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾ [هود، ١١: ٣٧].

فهذه سُفُن الإنقاذ. والأمم كما تحتاج في حياتها إلى سُفُن الإنقاذ

تحتاج إلى سُفُن الدِّفاع والهُجُوم والنَّقْل التجاري وما إليه ممّا تستدعيه نهضة الأمّة وحاجاتها. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل، ١٦: ١٤]. وإلى أن يتّصل المسلمون بتعاليم دينهم، وإرشادات كتابهم، ويفقهوها، ويعملوا بها، سيظلون في عناء من العيش، وضعف من السلطان، ووهن من القوّة وذلّة في الحياة[16].

أما العنصر الثالث:- وهو التّنظيم العَمَلي للحرب- فقد تناوله القرآن بأصول عامّة من جهات متعدِّدة:

١. في أسباب المعافاة من الجنديّة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا

(16) ولما كان إعداد القوة متواقفًا على المال، حثّت آيات كثيرة على البذل في سبيل الله، من ذلك قوله تعالى بعد آية الإعداد وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون أي: يوف إليكم عن طريق تركيز قوتكم في بلادكم وفتح بلاد أعدائكم ومنه قوله بعد آية القتال في سورة البقرة: وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ [البقرة، 2: 195] والتهلكة تشير إلى تهلكة البخل والشح في الدفاع الوطني

نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ...﴾ [التوبة، ٩: ٩١] فجعل أسباب المعافاة من الجنديّة محصورة في الضَّعف؛ ويتناول الضَّعف بعجز أو شيخوخة، وفي المرض، وفي عدم القُدرة على الإنفاق. ولم يَرَ القرآن أن منها حمل الشَّهادات العلميّة، ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم، ولا دفع بدل نقدي، ولا البنوّة لحاكم كبير أو صغير ممّا عهدناه في عصور الضَّعف والانحلال بل كان العمل في عصر النبي والعصور التالية له على عكس هذا. وما كان التّفكير في جمع القرآن إلّا مخافة أن يذهب بذهاب القرّاء الذين كانوا أكثر القوم إقدامًا وبسالة في حرب اليمامة، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سببًا في أن يستحر القتل فيهم.

٢. في إعلان الحرب: أوجبه القرآن، وحذَّر انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرّة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال، ٨: ٥٨] تأمر الآية بطرح العهد عند توجس الشَّر منهم، وتطلَّب أن يكون هذا النَّبذ صريحًا واضحًا حتى لا تكون خيانة من المسلمين لا يحبها الله ولا يرضاها.

٣. في تلبية الدَّعوة إلى الجهاد: حذر التباطؤ فيها والتثاقل عنها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة، ٩: ٣٨-٣٩].

ينذرهم إذا هم تثاقلوا عن تلبية الدَّعوة إلى الجهاد بالعذاب الأليم؛ عذاب الذُّلّ والاستعباد، وزوال الملك والسُّلطان إلى قوم غيرهم.

٤. في تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ

فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة، ٩: ٤٧-٥٠]. إلى أن يقول: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة، ٩: ٨٣]. وإلى أن يقول: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة، ٩: ٩٦] .

وعليك أن تتبع ما ورد في شأن غزوة تبوك بسورة التّوبة لتستخلص الخلال السيئة التي هي عنوان الجنديّة الشرّيرة، وستجد فيها ما يجب التنبُّه له وقت التّجنيد وإعداد العدّة القويّة المخلصة في إحراز النّصر والظفر، ثم اقرأ من سورة الأحزاب (١٢-٢٠) قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ لتزداد علمًا بأوصاف المعوقين المخذولين.

٥. في تنظيم التعبئة: أشار القرآن إلى أن التعبئة تكون على حسب الحاجة، فإذا دعت إلى خروج الجميع خرج الجميع، وإذا كفى البعض

اكتفى بخروج البعض، وظل الباقي قائمًا بأعماله الداخلية، ومددا للجيش من ورائه، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة، ٩: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء، ٤: ٧١].

٦. في تنظيم الجيش وتوزيع وحداته على مواضع الدفاع: انظر عمل النبي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ...﴾ [آل عمران:٣-١٢١]، ثم تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف، ٦١: ٤].

٧. في السمع والطّاعة للقيادة العامّة والثّبات في المواقف وتجنُّب أسباب الفَشَل والاعتصام بالإيمان واليقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا[17] وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال، ٨: ٤٥-٤٦].

٨. في حكم الفرار من الصف: حذّر القرآن منه، وبيّن سوء عاقبته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال، ٨: ١٥-١٦].

٩. في ترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء: طلب القرآن في ذلك أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، لإخلاء طريق الجيش مما عسى أن يتعرضه من عقبات الأعداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، ٩: ١٢٣].

(17) أي الإمام توحيداً للأمة، واتقاء لأسباب الفشل وقف ما جرت به العادة في الأمم من القوانين العامة، ووضع قوانين أخرى لذلك كان حتما عليه أن يفعله، لأنه أصبح وسيلة للواجب وهذا هو أصل ما يعرف في العصر الحديث بإعلان الأحكام العسكرية.

١٠.في أسرار الجيش: حذّر من إذاعتها، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المؤمنين أن يتثبتوا فيما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها، قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب، ٣٣: ٦٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال، ٨: ٢٧] وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ ...﴾ [النساء، ٤: ٨٣]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ [الحجرات، ٤٩: ٦].

١١.في الهدنة والصلح: أمر القرآن بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء، وظهرت منهم مخايل الصدق والوفاء: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال، ٨: ٦١-٦٢].

١٢. في الأسرى ومعاملة الأسرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الأنفال، ٨: ٦٧]. وقد خيّر الإمام إذا أثخن في الأرض وحل له الأسر، بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية ولا مقابل، وأن يأخذ عنهم الفدية من مال ورجال، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة. ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً...﴾ [محمد، ٤٧: ٤].

١٣. في العهود والمحافظة عليها: للقرآن عناية خاصة بالمحافظة على العهود. أوجب الوفاء بها، وحرّم الخيانة فيها، والعمل على نقضها، وأرشد أن يكون القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب، وحذّر أن تتخذ وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق، والوقيعة بالضعفاء، انظر قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ... ﴿٩٢﴾﴾[١٨] النحل، ١٦ : ٩١–٩٢].

١٤. إذا تبيّن للإمام مفاسد تلحق المسلمين من جراء المعاهدات وكانت تلك المفاسد تربو على مصالح بقائها وجب نبذها، ووجب أن يكون نبذها إعلانًا وجهرة. اقرأ قوله تعالى في سورة [التوبة، ٩: ٣]: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ...﴾.

(18) أنكاثًا: منقوضة. والأنكاث جمع نكث وهو نقض الغزل بعد إحكامه، ويشمل نقضه على أن يغزل ثانية وكلمة دخل تجمع معاني الغش والفساد والخديعة. وكلمة أربى تجمع معنى الزيادة في القوة والمال وسعة السلطان. والآية تحذر من نقض العهود وإبرامها على وجه لا تطمئن إليه نفوس المتعاهدين، فتظل تحت هيمنة القوة التي لا تعرف حقًا ولا سلامًا. وتحذر من اتخاذها وسيلة للاحتيال على استلاب الضعفاء الذين تلجئهم الظروف إلى قبولها. فهذه معاهدات دلت حوادث الزمن على فسادها، وسوء مغبتها وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ [النحل، 16: 94]. وانظر بعد ذلك فيما ترشد إليه الآية وانظر ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدرًا لنكبة العالم. وليعتبر بذلك أولو الأبصار.

هذا ما تيسر لنا في ذلك الوقت أن نستخلصه من آيات القرآن الكريم أصولاً للنظام العملي للحرب. والقرآن الكريم لا تنفد ذخائره، وكلما أمعن الإنسان في إشاراته، وتأمل في دلالاته، وصل إلى جديد. وإن خير معوان لتفهم القرآن الكريم وقائع الكون وحوادث الزمن، فهي أقوى مفسر، وأوضح سبيل للوقوف على أغراضه والوصول إلى مبادئه. وإن من يتتبع ما جاء فيه عن المواقع الحربية التي قام بها الرسول، يظفر بشيء كثير من تلك الأغراض والمبادئ التي تضاعف إيمان المؤمنين بأن القرآن لم يكن إلا وحياً يوحى من عند خالق القوى العليم بطيات النفوس.

التطبيق العملي لأحكام القرآن في القتال

نورد في هذه الخاتمة التطبيق العملي لهذه المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم في القتال، على عهد الرسول وخليفتيه أبي بكرٍ وعمر، أما فيما بعد فقد انتاب المسلمين شؤون داخلية وخارجية لوت عليهم السبيل في التزام ما شرع الله من نظم وقوانين، ودفعت بهم فيما يختص بالقتال إلى دائرة أوسع مما رسم الله للجهاد في سبيله.

إن أطوار حياة الرسول ومن معه من المؤمنين قبل القتال ترجع إلى:

١. الدعوة السرية التي آمن بها نفر قليل كانت تجمعه وإياهم وشيجة الرحم أو الصداقة التي كشفت عن سمو روح النبي ، وعظمة أخلاقه.

٢. الدعوة الجهرية الموجهة إلى عشيرته الأقربين ثم الموجهة إلى الناس أجمعين.

٣. دور المساومة وإغراء الرسول على ترك الدعوة في مقابلة ما يشاء من مال أو ملك أو سيادة.

٤. دور العنف والاضطهاد، وقد دوّن التاريخ من حوادث التعذيب

ما تقشعر من ذكره الجلود.

٥.الهجرة إلى أرض الحبشة فرارًا بالدين؛ وحفظًا للأرواح.

٦.التدبير والكيد والتآمر على النبي والمسلمين بل على بني عبد مناف عامة كي يسلموا الرسول وأصحابه ولا يحموهم من عدوان المشركين، وقد كان من آثار ذلك أن وضعوا الحصار على شعب أبي طالب، واشتدت وطأته على المسلمين، وكاد الأمر -لولا أمر الله - يقضي على روح المقاومة فيهم.

٧.الالتجاء إلى الطائف، والتماس النجدة من ثقيف، ومقابلتهم للرسول وصحبه بالهزء والسخرية وردهم على أعقابهم.

٨.الهجرة إلى المدينة، وقد تهيأت ظروفها بواسطة الوفود التي كانت تقدم إلى النبي . وما كان يقوم به من عرض الدعوة على القبائل، وبهذين أخذت الدعوة تسري بما تحمل في طبيعتها من جلال وجمال حتى كونت لنفسها أنصارًا من شباب يثرب عاهدوا الرسول على الموت في سبيل نشرها وحمايتها، وكان من آثار هذه الهجرة أن اشتد غيظ المشركين، وازداد حنقهم على فوات الفرصة التي كانوا يبذلون جهدهم

في الحصول عليها للفتك بمحمد وأصحابه.

٩. دور العداوة بين المسلمين واليهود في المدينة. فإنه لم يكد الرسول يستقر به المقام فيها حتى ظهر له أن اليهود الذين كان يظنهم أقرب إلى دعوته لأنهم أهل كتاب ولأنهم كانوا يستفتحون به على المشركين من قبل في حروبهم ينكرون عليه دعوته ويكيدون له ولأصحابه، فحمله ذلك على أن مد يده إليهم منعًا للفتنة، وعاهدهم على أن يتركهم وما يدينون. وبهذا العهد اطمأن بعض الشيء، ووجه عنايته واهتمامه إلى أعدائه الأولين الذين أفرغوا سمومهم بعد هجرته في إخوانهم الذين قعدت بهم أحوالهم المادية عن الهجرة، والذين لم ينفكوا عن تحين الفرص للوقوف في صدر تلك الدعوة، وتشتيت أمر القائمين بها.

١٠. دور التحرش: قدَّر النبي أنه إذا لم يعمل على نشر دعوته في المدينة، وهو ما كلف به من ربه، لا بد أن يتخذ أعداؤه المكيون سبيلاً لمفاجأته والدخول عليه في بلده الجديد، خصوصًا أن اليهود الذين عاهدهم لم يكونوا من الإخلاص بحيث يأمن بقاءهم على العهد، وأنه لا يبعد أن يفسحوا مجال المدينة للعدو الخارجي، وتتفق بذلك كلمتهم

على مطاردة المؤمنين من المدينة، كما طوردوا من قبل في مكة.

لهذا كله تهيأ الرسول وصحبه إلى منابذة خصومه وخصوم دعوته أهل مكة. وأخذ يناوشهم ويظهر لهم قوته. وروح العزم على المضي في الدعوة والعمل على نشرها وحمايتها. وعلى إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان. الذين يقولون ﴿... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء، ٤: ٧٥] وبهذه الروح بدأ القتال العملي بين المؤمنين والمشركين وحصلت بين الفريقين وقائع ذُكر بعضها في القرآن الكريم. وقد كلل الله جميعها بالفتح والنصر المبين.

١١.اليهود ينقضون العهد: لم يستطع اليهود أن يطهروا قلوبهم من أدران الحقد والحسد. ولقد كان توالي نعم الله على نبيه وأصحابه المؤمنين سبباً في إذكاء نار العداوة في قلوبهم حتى دفعتهم إلى نقض العهود التي أبرموها مع الرسول - فعل ذلك بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. واندلعت ألسنتهم جميعًا بسب الرسول ومناوأة المؤمنين في وقت ما أحوجه فيه إلى قلة الخصوم وتضييق ميادين القتال.

ولكن هكذا ابتلى الله المؤمنين فلم يجدوا بدًا من أن ينبذوا إليهم عهدهم. وأن يدخلوا معهم في طور جديد. طور العداء والمحاربة بعد طور السلم والمعاهدة.

هذه هي الأطوار التي مرت بالرسول قبل الهجرة وبعدها. ومنها يتضح أن مشركي مكة كانوا محاربين للنبي من مبدأ الدعوة، وأنهم بدءوا بالعدوان، وطاردوا المؤمنين المرة بعد الأخرى من ديارهم، واستبدوا بالمستضعفين يذيقونهم ألوان العذاب ومر النكال. ويتضح أن يهود المدينة لم يقاتلهم الرسول إلا بعد أن نقضوا عهدهم معه ووقفوا في وجهه كما وقف المشركون من قبل.

ومن هذا وذاك يتبين جليًا أن الرسول لم يقاتل إلا من قاتله وإلا دفعًا للظلم، وردًا للبغي والعدوان، وقضاء على الفتنة في الدين، وهذا هو عين ما قررته الآيات الواردة في سبب القتال كما تقدم.

وقد كانت الحروب التي قام بها بعد الرسول أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. تتميم بناء وضع أساسه الروم والفرس بأيديهم في عهد النبي . ولم يكن من الخليفتين سوى دفع الشر وتمكين الناس من النظر في

الدعوة وتأمين المسلمين على دينهم وبلادهم.

وجه النبي بحكم الرسالة دعوته إلى ملوك الفرس والروم فأرسل إلى ملك الروم كتابه المشهور يدعوه فيه إلى الإسلام. ويحمّله - إن تولى - إثم الرعية. فلما ترجم له الكتاب جمع بطارقته وعظماء دولته وعرض عليهم كتاب الدعوة واستشارهم في قبولها وعندئذ حاصوا حيصة الحمر. وزأروا زئير الأسد وأظهروا كراهة موقفه من هذه الدعوة. فعاد يلاطفهم ويقول لهم: إنما قلت ما قلته لأختبر صلابتكم في الدين والملك وبذلك نكص على عقبيه، وآثر الملك على الإسلام. ثم أخذ عظماؤه وبطارقته ينفثون سموم الحقد على الدعوى وصاحبها في قلوب الأمراء والأتباع، وكان من ذلك أن شرحبيل الغساني قابل رسول رسول الله إلى أمير بصرى - عند مؤتة - وعرف وجهته وعرف أنه من رسل محمد ، فأمر به فضربت عنقه. وقد قدروا أن المؤمنين لا يمكن أن يتساهلوا في عزتهم إلى هذا الحد، فاشتد حذرهم وحشدوا من الروم ومتنصِّري العرب قوة يستأصلون بها أمر محمد. ولما علم الرسول بذلك جهز جيشًا يضعف به من حدة الثائرين عليه، الهازئين بدعوته، وما

كاد يصل ذلك الجيش إلى مقتل (رسوله) حتى وجد حشد الروم على قدم واستعداد. فاشتبك الجيشان في موقعة حامية، واستشهد فيها ثلاثة من أبطال المسلمين ولولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ما نجا من الجيش أحد. ثم تتابعت الأخبار بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم. فتجهز النبي ، وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه في بلده ولما وصل إلى تبوك وجدهم قد عدلوا عن فكرتهم، فأقام النبي هناك عدة أيام صالح فيها بعض الأمراء. ثم عاد إلى المدينة يفكر في أمر هؤلاء الذين فاتهم النصر بمكيدة خالد بن الوليد، وأنهم لا بد عائدون إلى القتال. فجهز جيشًا تحت إمرة أسامة بن زيد، ولم يكد يخرج هذا الجيش حتى قُبِضَ .

وتولى بعده أمر المسلمين أبو بكر الصديق فرأى أبو بكر أن الحزم والوفاء والحكمة تقضي بإنفاذ ذلك الجيش الذي أعده الرسول ردًا لغائلة هؤلاء المعتدين. وتوالت بعد ذلك حروب المسلمين مع الروم حتى فتح المسلمون بلادهم، ومكنوا عباد الله من دين الله.

وكما تجلت الروح العدائية من الروم على هذا الوجه تجلت أيضًا من

الفرس. والفرس أشد غطرسةً وجبروتًا من الروم، وكان ذلك حينما بعث الرسول كتابه إلى كسرى فمزقه ورمى به إلى الأرض عتوًا واستكبارًا وقد بلغ من كبرياء كسرى:أن أرسل لعامله باليمن أن يبعث إلى محمد برجلين جلدين يأتيان به. وفعلاً توجها إلى الرسول وأخبراه بالمهمة التي جاءا من أجلها فقال الرسول: في هذا اليوم: "قتل كسرى" ولما علم الرجلان صدق الرسول أسلما، وكان إسلامهما سببًا في إسلام عامل اليمن. ثم انضمت إلى اليمن بلاد البحرين وعمان وكانت كلها تحت حماية الفرس.

وهنا ظنت الفرس أن انتصار المسلمين على الروم لم يكن إلا لضعف الجيوش الرومانية. فشرعوا في الإغارة على القبائل العربية المجاورة لهم واستغلوا ملوك الحيرة في ذلك فأمعن هؤلاء في الاعتداء على المسلمين. وعندئذ سار إليهم جيش المسلمين، ونشبت بينهم الحرب حتى فر معتمد الفرس إلى المدائن وبذلك خضع ملوك الحيرة للمسلمين وقد أشعل ذلك نار الحقد في قلوب الفرس على المسلمين. وتذكروا جبروتهم، وألفوا جيشًا لإخراج المسلمين من بلادهم. فدارت رحى حرب بينهم وبين المسلمين زحف في نهايتها المسلمون على بلاد

الفرس وبذلك سقط عرش كسرى ودانت لأولياء الله جميع البلاد الفارسية.

من هذا العرض الوجيز يتبين أن المسلمين في الصدر الأول ما كانوا يفاجئون قومًا بحرب إلا بعد أن يظهر منهم روح العداء ومعارضة الدعوة والوقوف في وجهها، والتحقير من شأنها. وأنهم كانوا متى تبين لهم ذلك الروح العدائي وأيقنوا بخطره عليهم وعلى الدعوة سارعوا إلى إخماده والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ويمتد شره، وما كانوا ينتظرون حتى يهاجمهم العدو في بلادهم. وذلك جريًا على القاعدة الاجتماعيّة الفطريّة: «ما حورب قوم في عقر دارهم إلا ذلوا» ومع هذا كان من تعاليمهم إذا وصلوا إلى أرض العدو الذي عرفوا عداءه أن يخيروه في واحد من ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وذلك رجاء أن يعود إلى نفسه، ويراجع قلبه فينتزع منه بالحكمة روح العداء والمخاصمة.

اقرأ إن شئت قوله عليه الصلاة والسلام، من وصاياه لأمراء جيشه «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث»

لتعلم أن روح العداء سابق على إنفاذ الجيش وأن التخيير لم يكن إلا بدافع الرجاء في السلم والعدول عن روح العداء.

وكما يتبين هذا من ذلك العرض يتبين أيضًا أن الحروب التي قام بها المسلمون في الصدر الأول لم تكن بقصد إكراه الناس على الدين ولا بقصد تسخير الشعوب وإذلالها، ولا بدافع الطمع في المال وسعة الملك والسلطان.

وإنه ليجدر بالناس أن يرجعوا إلى تشريع القرآن في معاملة من لا يدينون بالإسلام من أهل العهد والذمة كما يجدر بهم أن يقرؤوا سيرة الخلفاء الراشدين والأمراء العادلين مع الذين لا يدينون بالإسلام. وسيعلمون – عن حجة وبينة، لا عن ظن وتخمين مقدار سماحة الإسلام في معاملة رعاياه من غير المسلمين ومحبته للسلم العام، والتضامن الإنساني، سيعلمون مبلغ السمو في تشريعه الإنساني العام الذي جذب قلوب الناس إليه عن طوع واختيار، والذي عاش في كنفه غير المتدينين به قرونًا متطاولة. لا يشكون ضيمًا، ولا يبخسون حقًا[19].

(19) لُخِصت هذه الخاتمة من محاضرة أُلقيت بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وطبعتها

ولعل القارئ - بعد هذا - لا يخالجه شك في أن القرآن والعمل النبوي متضامنان على تقرير نظرية القتال على الوجه الذي تضمنته هذه الرسالة. ونرجو من الله سبحانه أن يهيئنا للقيام بما يوجبه علينا الدين من التبليغ لأحكام الله وهدايته، التي تكفل للمسلمين العز والكرامة إنه سميع مجيب.

المطبعة السلفية سنة 1352 هجرية

نبـــذة عن المؤلف

الإمام محمود شَلْتُوت (١٣١٠ – ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ – ١٩٦٣م)، عالمٌ مصري من كبار علماء الفقه والتفسير، تخرّج من الأزهر الشريف سنة ١٩١٨م، وتنقل في التدريس وعمل في المحاماة، ثم عيّنه جمال عبد الناصر شيخًا للأزهر في فترة حرجة من تاريخ مصر سنة ١٩٥٨م وكان أول حامل للقب الإمام الأكبر.

سعى الإمام شلتوت جاهدًا لتوحيد كلمة المسلمين والقضاء على الخلافات المذهبية. كما ركّز في إصلاحاته على الفصل بين الدولة والمؤسسات الدينية وبالتحديد الأزهر. وكرّس الإمام شلتوت نفسه لإيضاح أن الشريعة الإسلامية ليست على خلاف مع المجتمع الحديث وأنها منارة تنير درب الحياة المعاصرة التي تعج بالتحديات والتغيرات. وكان الشيخ شلتوت خطيبًا مفوّهًا معروفًا بأسلوبه السلس الذي يسهل فهمه وسيذكره التاريخ لمؤلفاته الكثيرة ولجهوده لنشر مرونة واعتدال ومنطق الإسلام.